ياسين طه حافظ

مباهج الطرق الضيقة

[بيننا يتمدَّد مستنقع ليس يلمس وردتَهُ غيرُ من يتوغَّل فيه..]
قصّة تُكملين نهايتَها

هكذا اتَّضحَ اللُّغزُ، راوي الحكاية يقنطُ،
يجمعُ كلَّ الخيالات في زاويهْ.
غصنُكِ الذَّهبيّ يكلِّله الثَّلجُ واللَّمْعُ في الفلواتِ
البعيدة ـ أو في المواقفِ ـ
يغرقُ، لا ضوء بعد.

أنتَ وحدك تجلس، منفرداً،
وتحاول ترسم رأسَ حصانْ.
[تَرَكَ الحَلْبَهْ
جاء ذاك الحصان إلى الغرفة الخاليهْ.]
هذه قصّة ثانيه.

فالزَّمانُ يدورُ على بطلٍ لم يعد بطلا،
موسمٌ آخر لاصطياد القطار
موسمٌ آخر لابتكار التَّعابير أو
موسمُ الثَّأرِ من لَمْعَةٍ في الحجَرْ.

[«ما تزال عنيداً؟»
ـ «إذا اشتعل الفحمُ تبدو حقيقتُهُ.»]
هكذا تنتهي القصّة الثالثه.

ليس لي ما أُشيرُ به
هذه ساعةٌ للنزول إلى القاع والالتصاق
مع البدء، والانحناء على جوهر الشِّعرِ
أكتب ما لا ألومُ به أحدا
صيحةً
أو صدى.
فهي انفلتَتْ ـ خيمةٌ نُصِبَتْ للغجَرْ
أو هي انحدَرَتْ مثلما شعلةٌ في النَّهَرْ،
تلك أحلامُها السَّالفه

في حكايا الطفولة ما يمنح النّازلين إلى القبرِ
هزّةَ رأسٍ أخيرهْ.
[أنتَ راوَغْتَ
سرَّبتَ ما بيننا قصّةً رابعهْ.]

وأعود لأقرأ ما قد كتبت:
هي في الباب تجلس محزونةً،
سقطَتْ؟
فلماذا تضمّد جرحاً على ساقها؟
فجأةً صرَخَتْ من هزال النّجوم البعيدهْ
وذبول المصابيح مثل القَرَعْ:
«إنَّ بَعْدَ النَّهارْ
ليلة باردهْ
وبقايا دمارْ.»

تلك قصّتُها:
[قبل أن تنعطفْ،
شعلةٌ في الجَسَدْ
أُهمِلَتْ زمناً ـ
ربَّما ندمت. ربَّما شتَمَتْ قدراً صالحاً، ربَّما ـ ،
«الفضيلة هذا الضماد العتيق!»
ومَضَتْ لتعاودَ كُلَّ مراحلها..]

ربَّما في محطّهْ
سَيَراكِ مسافرْ
متعثِّرةً تبحثين بمعطف كونتيسةٍ، ترتجين بها زاويهْ،
تجدين بها فندقاً باذخاً، أنتِ سيِّدةٌ في مقاصيرِهِ،
ذلك ما سترينَهُ إذ تضعف الذّاكرهْ.
فأنا رجلٌ يرصد الرّوحَ عبر تدهورها
ولذاك ارتضيتُ مكاني وزاويتي والكتابْ.
وبقيتُ أحدِّث شعلَتَكِ الفائقه
لَمْعَةً في سَحابْ
وأرى قصّتي جثّةً تتمدَّد بين القَصَصْ

وصل الحزنُ روحَكِ؟ هذا الذي كنتُ أحذرُهُ
فهو يوقفني حائراً في الطّريقْ.

لَمْعَةٌ بقيت في الحَجَرْ
إنّما الكلمات الّتي تُحسنينَ صياغَتَها،
غادرتْ

حمَلَتْ صوتَها وحقيبةَ ألوانها،
حَمَلَتْ عمرَها وزمانَ التّلذُّذِ تحتَ النّدىٰ
ومضَتْ.
لا أُصدِّقُ! كُلّ المسافة فارغةٌ؟ كُلُّها؟
إنّني فَزِعٌ، لا أرىٰ!

صوتُكِ المتفرِّدُ وسط البساتين أعرفُهُ
صاح في اللّيلِ صيحَتَهُ واختفىٰ
بعدَهُ الماءُ معتكِرٌ وزهور الحديقة زائفةٌ
لا أُميِّزُ أسماءها
اختلطَتْ كلّها،
كلّها عَلَفٌ للحصان الذي سوف يخرِق
بابَ السّياجِ ليأكلَ ما قد يروقُ لَهُ.
فلماذا عَبَرْتُ القرى؟

هكذا تنتهي الكلماتُ وتبقى الستارةُ مرفوعةً ـ
كم يحار الممثّلُ في دوره! وأنا أتَلَفّتُ
أبحثُ عن مخرجٍ للعراءْ،
أتساءل عن وردة الرُّوح أو شارةٍ
لَمَعَتْ مرّةً في السَّماءْ.

قصص في الهواءْ
هل ترين نهاياتِها أو بداياتِها، هل ترينْ؟
ليس ذا موسماً آخر للفَرَحْ،
إنَّ ذا موسمٌ لابتداء الدَّمار الكبيرْ
موسمٌ في نهايتِه،
بعد هذا الممرّ الغريب إلى الله والشِّعْرِ،
تعاسةُ شيخوخةٍ
وهلاكُ ضميرْ.

قصة

المسكون

د. عمر محمد الطالب

- ١ -

مضىٰ أكثر من شهر على بدء السّنة الدراسيّة. تعرّفتُ إلى الطّلبة الجيّدين، كانوا قلّة بالنّسبة لعدد طلاّب السّنة المنتهية الوفير. لم تكن سنّي تساعد على الاستمرار في العمل، فقد شارفت على الثّامنة والستّين، وهي السّن القصوىٰ المسموح فيها بالعمل في قوانيننا المدنيّة الخاصّة بالأستاذ الجامعي. قدّمتُ طلباً أكثر من مرّة لإحالتي على المعاش، فقوبل الطّلب بالرّفض. لم يعد العمل الجامعي بالنّسبة لي مغرياً؛ فلقد تحوّل إلى مجرّد دراسة ثانوية: الكتاب مقرّر، والمعلومات معادة خلو من الإبداع أو شحذ القابليّات؛ الطّالب الجيّد هو الذي يحفظ ما في الكتاب المقرّر؛ لا يحسّ الإنسان أنّه في جوّ علمي، وإنّما في مصلحة تجاريّة؛ كلّ العاملين في الكليّة يسعون إلى تحقيق مصالحهم الخاصّة وزيادة أرباحهم بوسائل منفرة أبعد ما تكون عن الرّوح العلميّة؛ لا أحد يحدّثك في العلم أو الثّقافة، بل في الأسعار وتوفّر السّلع أو فقدانها في السّوق؛ وأضحىٰ للطّلبة أعمال يولونها جلّ اهتمامهم، وأصبحت الدّراسة والتّعلّم مسائل هامشيّة. الفساد دبّ في كلّ شيء، فاحت رائحة العفن تزكم الأنوف. كنت غريباً عن الجوّ كلّه. قضيت عمري في الدّراسة والقراءة والتّأليف، أمضيت سبعاً وأربعين سنة في مهنة التّدريس، ألّفتُ أكثر من عشرين كتاباً لم توفّرْ لي مورداً يجعلني أتفرّغ للكتابة كما يحصل في الغرب، إلاّ أنّها حقّقت لي الرّاحة والاطمئنان عند كتابتها. ألّفتُ كتباً أخرى وضعتُها في الدّرج. ما فائدة النّشر إذا لم تجد أحداً يقرأ؟ شغل حبُّ المال النّاسَ؛ وإذا وجدوا فراغاً من الكدح للحصول عليه، انصرفوا إلى المسكرات أو التّلفاز، أو إلى إيقاع بعضهم بالبعض الآخر. أبعدني جوُّ الصّراع هذا من أجل الصّراع عن بؤرة الحياة المعيشة. آمنتُ دائماً بمبادئ تخالف المبادئ السّائدة. لم أتزوّجْ حرصاً منّي على ألاّ يشغلني شيء عن المعرفة. لم يهمّني المال يوماً، ربّما لأنّه توفّر لي أكثر من حاجتي. حاجاتي محدودة جدّاً، أستهلكُ القليلَ من الطّعام بسبب إصابتي بضغط الدّم وأمراض في القلب، مات بسببها أبي وإخوتي. بقيتُ وحيداً ليس لي من أقارب غير الأبعدين المنشغلين بجمع المال وتنمية ثرواتهم، لا أراهم إلاّ في المناسبات القليلة،